(بين زمانيين والشاعر الفلسطيني نزار سرطاوي)

ضمن الوفد العربي الفلسطيني التقينا في مهرجان الإسكندرية الدولي الثاني للشعر العربي تلمست في شعره روح المقاومة يستمد مادته من تاريخ قريته العتيدة من ذكريات تعاقبت عليها الأحداث فتجمع عليها غبار الزمن، تعهد أن ينفض عنها ويسوقها بحرفية وبأسلوب محبب فيبث في روح المتلقي حاجة الانتماء للنص والتعاطف مع موضوعه .

أن المقاومة ليست طارئة على الشعر وليست حالة جديدة إنما وجدت منذ البدايات الأولى لنكبات العرب المتوالية، فنجد عند الكثير من الشعراء الجاهليين أشعاراً تدعو لمقاومة المحتل أمثال كسرى أنو شروان وغيره، وتتعدد أشكال المقاومة حيث أنها ليست حكراً على السلاح بل هناك مقاومة اقتصادية ومقاومة ثقافية ومقاومة ضد التطبيع ومقاومة لغوية حيث أن اللغة العربية تتعرض لهجمة للقضاء عليها فتأتي المقاومة اللغوية لصد هذه الهجوم «أن تكون مقاوما عليك استحضار أسلحة المقاومة» .

والمقاومة في الشعر الحديث ظهرت خلال الاستعمار الذي تعرض له الوطن العربي مثل الاستعمار الفرنسي والاستعمار

الإنكليزي والإيطالي وأخيراً الصهيوني وهو يختلف عن غيره لأنه استعمار اقتلاعي لأنه يريد أن يقتلع الشعب الفلسطيني من جذوره العربية وهنا لابد من وقفة فظهرت المقاومة في الشعر الحديث ضد الاستعمار الغربي بشكل عام وظهرت المقاومة الفلسطينية في الشعر ضد الاحتلال الصهيوني فمن الشعراء من تبنى القضية بشكل مباشر وكان ذلك صريحاً في أشعار عمر أبو ريشة ونزار قباني.

وواصل الشعراء مسيرة المقاومة بالشعر عبر الأجيال الشعرية المختلفة فجاءت قائمة طويلة من الشعراء المقاومين ممن سلطت عليهم الأضواء فعرفهم شعراء العرب وهناك شعراء عاشوا على الهامش رغم أن لهم أصوات مقاومة، ونزار السرطاوي حلقة من حلقات سلسلة مقاومة المحتل الصهيوني الغاشم فجاء شعره مكملا لمسيرة من سبقه وقد تحول عنده وجع الوطن إلى ذكريات تستنهض فيه الحنين لمسقط رأسه فيخاطب «سرطة» إذ يقول:

جدار القهر

يحجب عنك أغنية

ترددها العيون الراسفات

بقيده الملعون ...ص13

سرطة تلك القرية التي شهدت صباه فشكلت وعاء ذكرياته التي من خلالها يستعيد زمن الطفولة المنهوبة والمصادرة احتلت القرية وهجر عنها وليس بينه وبينها الآن سوى الذكرى (جدار القهر) قوة الاحتلال الغاشم هي الحائل بينه وبينها، ما أعمق جرح المكان وليس أي مكان هو ذكريات الأحبة والأهل والأقران، مكان مهما تقادم الزمن لن ينسى.

ثم يتحول لموضوع آخر ويصف المحتل من خلال رؤية دينية لليهود لتبرير الاحتلال فهو يقول:

حكاية كائن مهووس

أتى من آخر الدنيا

ويزعم انه الآتي على وعد السماء ...ص15

نعم في فكر المحتل الصهيوني أن فلسطين هي ارض الميعاد والوطن والمستقر لبني صهيون على حساب أهلها، الصورة هنا واضحة تستمد أطرها من بعد تاريخي وسياسي وديني شائع عند العرب واليهود رسخه «بلفورد» منذ ان خرج بنظرية «الوطن الشرعي لشعب الله المختار» وارتبط هذا الوعد بالسماء من خلال تنظيرات رجال الدين اليهود.

ولو تحولنا لموضع لآخر لوجدنا أن السرطاوي لديه نظرة ناقدة للسائد الاجتماعي يتوغل الشاعر في عمق المتغيرات الاجتماعية فينتقدها بطريقة تقترب من السخرية السوداء يقول:

هذي الطفلة

تضرب بالعرف السائد عرض البحر

لا تلقي بالا لوصايانا العشر لذا

يبدو الرأس العاري

وذراعاها البيضاوان

والصدر العاجي

ونهداها الغضان

والفستان قصير فوق الركبة...57 – 58

لعب الانفتاح على الغرب ومغادرة الأعراف العربية الإسلامية دورا كبيرا في التحلل الاجتماعي على مستوى الأفراد والأسرة فجاء هذا النص صرخة بوجه هذا الانحلال الأخلاقي والتقليد ألاعمى للعالم الغربي .

وفي نص آخر يقول السرطاوي نزار:

وداعا

لئلا تموت خلايا الشعور

فهذا القمر سيمضي بعيدا

ويتركني لوحوش الظلام

وكنت نسجت له من ترانيم قلبي

وشاحات عشق

فألقت بها الريح في الطرقات

ممزقة دامية ...ص38

يذكرني السرطاوي في هذا المقطع بشعراء عمدوا شعرهم بالحزن والألم فمنذ وجد الإنسان وهو يعانى أزمة الحياة ويدرك ما فيها من خير وشّر وسرور وحزن . شعور الإنسان بالألم والحزن ظلّ رفيقه في الحياة وهذه الآلام تكون لفقد عزيز أو أمنيّة أو نعمة أو تكون لحرمانٍ مما يحب ويريد في الحياة وفقد شاعرنا هنا لا يعوض فهو «فقد وطن «وفقد ملاعب الطفولة والصبا ومفارقة الأحبة والأصدقاء قسرا ولو قارنا اختلاجات الشاعر نجده خاصة في أشعار المذهب الرومانسي كالشعور الحاد بالألم عند أبي القاسم الشابي وإبراهيم ناجي وليس دافع هذا الشعور فقد ذاتي شخصي مادي بل الشعور بفقد معنوي دائم يتجدد كل يوم واذا نظرنا ببصيرة لشعر السرطاوي نجد انه قد صور الحزن واليأس لإشاعة الروح الرومانتيكية الحديثة وتتمثل فيها شخصية الشاعر مليئة بالشكوى والأنات ومجموعته بين زمانين شاهد على هذه السمة في شعره والإيغال في عوالم الألم مبعثه ذلك الحرمان الذي اشرنا إليه .

بعد نكبة حزيران برز في الشعر الفلسطيني موضوع الأرض والتمسّك بها، وموضوع الثورة والمقاومة. أو كما قال الكاتب والشاعر الفلسطيني، طلعت سقيرق، «برزت موضوعة الأرض ومستويات التداخل، ثم الشخصية الفلسطينية وملامحها في القصيدة، والدخول في مسافة الحلم. وهو ما شكل معالم الشعر المقاوم في موضوعة التحدي والمجابهة، والإصرار على الثبات».

ولا غرابة فان نزار السرطاوي هو جزء من هذه المنظومة الشعرية التي أخذت على عاتقها مسؤولية التصدي للمحتل وربط المشاعر الذاتية بالهم الوطني، وحتى غرض الغزل عند شعراء المقاومة مرتبط بوثاقة بالوطن بل ينطلق من الأرض ليصل إلى الحبيبة وهذه السمة رافقت معظم نصوص «بين زمانيين».